التناص الاقتباسي ودوره في إنتاج الدلالة في شعر أبي العتاهية

عبد الكريم هجرس طالب دكتوراه جامعة باتنة1

الملخص:

يتصدى البحث للتناص الأدبي على اعتبار أنه أحد المصطلحات التي وفدت إلى البيئة العربية في العصر الحديث، وأخذ يشق طريقه في الأدب العربي.

ولما كان لهذا المصطلح صور متعددة، منها ما يكون في صورة اقتباس جزء من نص ما يضمنه الشاعر قصيدته، ومنها ما هو دلالة يستدعيها ويتشربها من نص سابق، فقد كان أداة طيعة في يد المبدع يثري بها تجاربه الشعرية، وجسرا يربط به فنيا وفكريا بين نصه والنص الغائب.

آثر البحث الوقوف عند التناص الاقتباسي في شعر أبي العتاهية ومدى استفادتهمنه، وتوظيفه له عبر الدلالات الفنية البنائية القرآنية في نصوصه الشعرية، وهذا ما ساهم في إنتاج دلالات فنية جديدة، أدت وظيفتها في تجديد معاني الأبيات الشعرية، وهذا يعني أن ظاهرة التناص الاقتباسي في نصوصه الشعرية كانت منبعا ثرا، يستلهم منه الدلالات التي تحقق المقاصد التي يروم إليها، وبه استطاع أن يجعل قصائده تنفتح على عوالم غنية بالإيحاء والدلالة، خاصة إذا عرفنا أن القرآن يعد المورد الأول الذي استقى منه.

Abstract:

المنارة للاستشارات

The research stands for the literary intertextulity considering it as one of the expat terms to the Arabic environment in the modern era and took its way in the Arabic littérature.

This term had many implications and meanings, among them: quotating a bit of a text , the poet inserted his poem in it, of which what is an indication taken from former text.

The intertextuality is an obedient tool in the creative's hand enriches with it his poetic experiences and also it is a linked bridge between his text and the former text.

The research prefers dealing with quotation in Abulaatahia's poem and its benefits, as far as his use to the Quranic and artistic significances in his poems and this what contributed in producing new artistic significances lead to renewal the meanings of poems, it means that quotating in his poems was a rich source that he inspired from it the significances thatachieved his purposes and allowed his poems open up to wide world rich in significance, especially if we know that the Quran is considered the first source he benefited from.

توطئة:

يعتبر التناص *intertextuality* من النظريات التي تندرج ضمن الإنتاجية النصية، التي تهتم بالكيفية التي يتم بها توالد النصوص وخلقها، وتعد الناقدة الفرنسية ذات الأصول البلغارية جوليا كريستيفا أول من صاغ هذا المصطلح عن ميخائيل باختين–أحد أقطاب الشكلانيين الروس–، والذي يعد بدوره أول من أطلق شرارة هذا المصطلح، رغم أنه لم يستعمل كلمة تناص بل وظف كلمة حوارية وكلمة تداخل، مثل التداخل السيميائي، التداخل اللفظي، فالكاتب حسبباختين يتطور في عالم مليء بكلمات الآخرين، فيبحث في خضمها عن طريقة تميزه عن غيره، وهو يرى أن كل خطاب يتكون أساسا من خطابات أخرى سابقة يتقاطع معها بصورة ظاهرة أو خفية، فلا وجود لخطاب خال من آخر[1].

التقطت جوليا كريستيفا مصطلح الحوارية من أستاذها باختين وطورته وأعطته اسما جديدا، هو التناص وعلى يديها ظهر بشكله التام، ومن خلال جملة التعاريف التي أطلقتها تحددت أدواته الإجرائية، فقد كشفت منذ البداية "أن كل نص هو عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى"[2]، والواضح أن

المنارة للاستشارات

الباحثة قد تبنت تصورا مغايرا يحمل بين طياته رؤية نقدية جديدة، تؤكد فيه انفتاح النص الأدبي على عناصر لغوية وغير لغوية (إيحائية ورمزية)، وهي بهذا تتجاوز ذلك التصور البنيوي الذي نراه يلح على مفهوم البنية.

خاض غمار هذا المصطلح من الغربيين بعد كريستيفا الكثير من الباحثين أمثال: " ريفاتير، وبارت، ودريدا وجينيت" وأسماء أخرى كثيرة، كل حسب رأيه والمنهج الذي يشتغل عليه، فتشعبت المفاهيم وتعددت الرِؤى، وأخذ معين التناص يشتد ويقوى، حتى غدا "رواقا يدخل منه الناقد إلى القضايا النقدية التي يريد مناقشتها حسب انشغاله الأيديولوجي أو الجمالي، وحسب أفقه المنهجي الذي ينظر منه إلى النص الأدبي"[3].

انتقل هذا الفيض من الدراسات حول مصطلح التناص إلى النقد العربي، فظهرت تأثيراته بشكل واضح وجلي في الجانب التنظيري، ويعد محمد بنيس أول من اشتغل على هذا المفهوم، فقد استعمل التناص كأداة للقراءة الخارجية للمتن، وهو في تصوره هذا لا يحيد عن التصور الذي انطلق منه كل من كريستيفا وتودوروف.

يحدث التناص عند بنيس وفق معايير ثلاثة تحكم عناصر النص اللاحق بالنص السابق، وهي:[4]

1-التناص الاجتراري: ويتم فيه إعادة كتابة النص الغائب بشكل نمطي جامد وبوعي سكوني، يكون التعامل هنا خال من التوهج وروح الإبداع.

2- التناص الامتصاصي: تتم فيه إعادة كتابة النص الغائب وفق حاضر النص الجديد، ويكون التعامل معه كحركة وتحويل لا ينفيان الأصل.

3- التناص الحواري: وهو أرقى مستويات التعامل مع النص الغائب، ويعتمد الحوار "النقد المؤسس على أرضية عملية صلبة تحكم مظاهر الاستلاب، مهما كان نوعه وشكله وحجمه"[5].

ولم يكن محمد بنيس الوحيد الذي اشتغل على هذا المصطلح، بل ظهر عدد غير قليل من النقاد الذين اغنوه تنظيرا وتطبيقا، أمثال محمد مفتاح وصلاح فضل، وعبد الملك مرتاض ومحمد عبد المطلب، وأحمد الزعبي وغيرهم.

إن اختيار التناص الاقتباسي ودوره في إنتاج الدلالة في شعر أبي العتاهية عنوانا لهذا البحث جاء لكشف التفاعل الدلالي بين المضامين الشعرية عند شاعرنا وما تسلح به

المنارة للاستشارات

من معرفة قرآنية ودينية لإثراء مضامينه الزهدية، كما يحاول أن يقف عند دور هذا التناص في انتاج دلالات فنية جديدة أدت إلى التحول والتجديد في معنى ابياته الشعرية.

التناص الاقتباسي:

هو شكل يقوم على استدعاء النص الغائب في النص الحاضر دون مساس بتركيب النص المستحضر، أو مع تغيير طفيف لا يمس جوهره بتحوير أو تطويع، ولعل التزامه بهذا يعود إلى نظرة التقديس والاحترام لبعض النصوص والمرجعيات ولا سيما الدينية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد يعود الأمر إلى ضعف المقدرة الفنية والابداعية لدى المبدع في تجاوز هذه النصوص شكلا ومضمونا، فتبقى النصوص الحاضرة أسيرة لتلك النصوص الغائب[6].

وإذا كان التناص يقوم على حضور نص ما داخل نصٍّ آخر، بشكل ظاهر أو مستتر، فإنّ "الاستشهاد (**Citation**)، يمثل الدرجة العليا لهذا الحضور النصي، حيث يعلن النص الغائب عن نفسه في النص الحاضر، فيصبح هذا الحضور بين النصين مندمجا حتى يغدوان كتلة واحدة غير متشظية، وإلا فإن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تجميع، لا مسوّغ له، ولا رابط يربط بين أجزائه، ليؤدي دلالة مكثفة لعمل واحد"[7].

ومادام أن الشعراء يختلفون في التعامل مع أداة التجربة الشعرية، إذ لكل واحد منهم ميزة يتفرد بها في تناول اللغة، فإن هذه اللغة تتكون من كلمات، والكلمات سابقة للنص في وجودها وهي سمة مشتركة بينهم جميعا، تنتقل من نصٍّ إلى نص آخر، وهي في انتقالها تحمل معها حمولتها الدلالية المكتسبة، وهذا شأن الاقتباس الذي يزيد من فاعلية النص، ويعمق الأثر في نفس المتلقي، فقد كان الدين ولا يزال من أكبر العوامل التي تجتذب الأسماع وتؤثر في القلوب خاصة إذا كان الشاعر بارعا في استيعاب المبادئ الأخلاقية وتقديمها في قالب شعري محبوب[8].

لقد أدرك أبو العتاهية أن الاقتباس ليس حلية جمالية فقط، بل هو وسيلة مساعدة على كشف الدلالة التي يريدها وتعميق تجربته الشعرية، كما وجد فيها أداة طيعة للتأثير في المتلقي وجَعْلِهِ ينصاع لجملة المواعظ والتوجيهات، فيندفع إلى إصلاح سلوكه، وتقويم اعوجاجه، وهذا ما يساهم في تغيير الواقع .

المنارة للاستشارات

والحقيقةأن "الاقتباس يمثل شكلا تناصيا يرتبط مدلوله اللغوي بعملية الاستمداد، التي تتيح للمبدع أن يحدث انزياحا في أماكن محددة في خطابه الشعري، بهدف افتتاح المجال لشيء من القرآن أو الحديث"[9]، وهو بهذه العملية يسعى لجعل النص الغائب (القرآن) جزءا أساسيا في بنية نصه الجديد.

استفاد أبو العتاهية بشكل واسع من التناصالاقتباسي، والمتأمل لشعره الزهدي يلمس حضور الصياغة القرآنية في نصوصه حتى لتكاد تسيطر عليه سيطرة كاملة، ولو رحنا نستقصي السبل التي سلكها شاعرنا في تناصه الاقتباسي لرأيناه يسلك سبل عدة لعل أهمها:- التناصالاقتباسي الكامل –التناصالاقتباسي الجزئي – التناصالاقتباسي المحوَّر-التناصالاقتباسي الإيقاعي، وسيقتصر حديثنا في هذا البحث على النوع الأول نظرا لوروده بكثرة في شعر أبي العتاهية.

التناص الاقتباسي الكامل: يقوم هذا النوع على اقتطاع آية أو جزء متكامل مستقل منها، ويضعه في سياقه الشعري من دون أن يتصرف في بنيته الأصلية بالزيادة والنقصان أو بالتقديم والتأخير.

استخدم أبو العتاهية هذا النوع من التناص، واعتمد عليه في إثارة الشعور الديني في نفوس الناس، وحثهم على تطليق الدنيا الزائلة والتمسك بالآخرة الباقية، فكان بمثابة المعلم يوجه ويرشد، وينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف، وحتى يحقق الغاية وتلقى مواعظه القبول لدى السامع، استعان بالاقتباس من القرآن الذي به يكون الكلام أشد وقعا وأبعد غورا في النفس، ولعل إكثاره من هذا النوع من التناص يرجع إلى رغبته في الحفاظ على قدسية كلام الله عزّ وجل، والبعد عن التصرّف فيه أو التّمرد عليه، ومن نماذج هذا التناص قوله:

يَـا عَجبًا كلُّنَا يَحِيدُ عَن الـــــ ـــحِينِ وكـُـلٌّ لحـِــــينِه لاَقِ
كَـأنَّ حـَــيًّا قَدْ قَامَ نادِبـُــه والتّــفَّتِ السَـاقُ منْهُ بـالسّاقِ
واسْـتلّ مِـنه حَيَاتَهُ ملَكُ الـــــ ـــمَوتِ خَفيا وقِيْلَ مـنْ راقِ[10]

إنّ ذهن المتلقي حينما يقرأ هذه الأبيات يتجه مباشرة صوب قوله تعالى: "**كلاَّ إذاَ بلغَتِ التَّرَاقِي، وقيلَ منْ راَقٍ، وظَنَّ أنَّهُ الفرَقُ، والْتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاق**"[11]، فقد استخدم الشاعر النص القرآني وصاغه في شعره ليعبر عن مشهد الاحتضار، وسكرات الموت

المنارة للاستشارات

التي تعد آخر حلقة في الحياة الدنيا، وأولى الخطوات إلى الحياة الفانية، وفي هذه اللحظات تبطل كل حيلة، وتعجز كل وسيلة في قطع الطريق الذي يساق إليه هذا المخلوق، ويساق إليه كلّ حيٍّ من بعده[12]، وقد وظف الشاعر هذه الآية توظيفا مطابقا للسياق الذي وردت فيه، إذ وردت في عجز البيت بأكمله مع زيادة لفظة **(منه)** ليستقيم الوزن الشعري، كما نرى استحضاره لقوله تعالى: "**وقِيلَ منْ راقٍ**"[13] في عجز البيت الثالث؛ فإذا كانت الآية جاءت لوصف مشاهد اللحظات الأخيرة من حياة الإنسان، "حين تبلغ الروح التراقي، يكون النزع الأخير وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار، ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح"[14]، فلعلّ رقية تفيد، وترفع الكرب الذي نزل بالمحتضر، فإنّ الشاعر يسوق الدلالة ذاتها، ويستثمر في هذا النص القرآني، ليقرع آذان السامعين، ويدفعهم إلى التفكر في المصير المحتوم الذي ينتظرهم، والواضح أن هذا التناص ساهم في تعميق الفكرة المطروحة، وبلورة رؤية الشاعر في قضية الغفلة والسهو التي أصبحت تخيِّم على قلوب الناس، بعد أن فتنتهم الحياة بماديتها الجامحة.

ومن التناصات البديعة التي لقيت استحسان النقاد والدارسين، ما ورد في قصيدة له مدح فيها المهدي، حيث يقول :

أتَـــــته الخـِــلافَةُ مُنــقــــادةً   إليــــــه تجَـــــــرّرُ أذْيــالَـهَا
فَـــــلمْ تـــــكُ تصْــلُحُ إلاّ لَـهُ   ولـم يَـــكُ يَصْــــــلحُ إلا لـــــهَا
ولَـو رامَـــــــهَا أحَـــــدٌ غَيــرُهُ   لزُلْـــزِلَـــــتِ الأرْضُ زِلـــزَالَـــهَا
ولَوْ لَـم تُطِـعه بَنَـــاتُ القُـلوبِ   لمَــــا قَـــبِلَ اللهُ أعـْـــــمَالَـــهَا [15]

يستمدّ الشاعر المعنى واللّفظ من قوله تعالى: "**إذَا زُلْزِلَت الأَرضُ زِلْزَالها**"[16]،ليكشف عن مكانة الممدوح في قلوب الرعيّة، وقوة الغضب الذي كان سيصيبها لو اعتلى سدّة الخلافة أحدٌ غيره، فهو في نظر الشاعر الأجدر بها، والأقدر عليها، ومنْحُ الخلافة لغيره أمرٌ جليل يقترب في هوله من يوم الزلزلة، يوم القيامة، حينما ترتجف الأرض الثابتة ارتجافا، وتتزلزل زلزالا، والشاعر أراد أن يتكئ على الإيحاء الذي يحمله هذا المشهد القرآني، في تصويره لهول يوم القيامة وشدة وقعه في نفوس الخلق، ليعبّر عن موقفه الشعري، وهذا النوع من المدح يستميل إليه قلوب الخلفاء ويطربهم، وأبو العتاهية بذكائه وقوة فطنته أراد

المنارة للاستشارات

أن يعزف على الوتر الحساس الذي يهز عواطف الخلفاء، ويجعلهم يقدمون العطاء بغير حساب، ولعل هذا ما أدركه بشار بن برد، الذي كان حاضرا عند إنشاد الشاعر لهاته الأبيات، فقد اهتزّ طربا وراح يخاطب أشجع السلمي بقوله: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطِر عن فَرْشِه طربًا لما يأتي به هذا الكوفي؟[17] .

وقد سرى هذا الطرب بين جوانح ابن الأثير بعد قرون من الزمن، فراح يكشف عن شدة اعجابه بتلك الأبيات فقال: "ولعمري إنّ الأمر كما قال بشار، وخير القول ما أسكر السامع، حتى ينقُله من حالته سواء كان في مديح أو غيره، واعلم أن هذه الأبيات المشار إليها ها هنا من رقيق الشعراء غزلا ومديحا، وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر، ومع هذا فإنك تراها من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات، وهذا هو الكلام الذي يسمى "السهل الممتنع"، فتراه يُطعِمُك، ثم إذا حاولْتَ مماثَلَتَه راغ عنك كما يروغ الثعلب، وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر، فإنّ خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذْنٍ"[18] .

وإذا كان أي الشاعر في كل زمان ومكان لا يستطيع أن يصدر في شعره إلا على الوجه الذي تمليه عليه نشأته وثقافته، فإن أبا العتاهية وبحكم ثقافته الدينية قد تجلت في شعره بصمات النص القرآني بشكل واضح لا تخفى على ناظر بصير، فالخطاب القرآني جاثم في ثنايا كل نصوصه، من ذلك ما نلمسه في قوله:

مَا اسْتَوَى النَّاسُ مُنْذُ كَانُوا أُنَاسًا ... خَلَـــــــقَ اللَّهُ خَلْـقَهُ أَطْـــوَارا

مَنْ رَأى عــبرةً فَفَكَّرَ فيـــــــهَا ... لَمْ يَــزِدْهُ التَّفْــــكِيرُ إلاَّ اعْتِبَـارا[19]

واضح هنا الاستغلال الشعري لقوله تعالى حكاية لمقاله نوح عليه السلام لقومه: "**ماَ لكُم لا ترجُونَ للَّه وَقارَاً، وقَدْ خلقَكُم أطْوارًا**"[20]، فقد أورد الشاعر الآية الثانية في عجز البيت الأول مع تصرف طفيف في الصياغة، وتطابق في البنية العميقة بين النص القرآني والنص الشعري ، فالله خلق الناس أطوارا أي تارات، خلقهم أوّلا ترابا ثمّ نُطفًا ثمّ علقا ثم مُضغا، ثم خلقهم عظاما ولحما ثم أنشأهم خلقًا آخر[21]، وهناك من ذهب إلى أن الأطوار هي الأصناف المختلفة الألوان واللغات[22].

ومن الملفوظات التي تكشف حضور التناصاالاقتباسي من القرآن الكريم، قول الشاعر:

حَسْبُنَا الله ربُّـــــنا هو مولًـــــى ... خَيْرُ مولًى وَنَحْــنُ شَرُّ عَبِـــيد

المنارة للاستشارات

خَلَـقَ الخَلْقَ للْفَنَاءِ فهم بيْـــــــــ ـــــــــنَ شَقِيٍّ مِنْهُمْ وَسَعِيـــــــد

لَيْتَ شِعْرِي وَكَيْفَ حَالُك يا نَـــفْـ ـــــــــسُ غَدًا بَيْنَ سَائِقٍ وَ شَهِيد[23]

فهو يتكئ إلى قوله تعالى: "**وجَاءَتْ كلُّ نفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وشَهِيدٌ**"[24]، وحتى وإن كان الشاعر قد وظف النص القرآني بشكل اجتراري جامد، فإنّ الدلالة قد اتّضحت وازدادت تأثيرا في المتلقي، أراد من خلالها الشاعر الترهيب من اليوم الموعود؛ يوم الحساب أين تكون النفس بين ملكين أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد عليها بعملها، ولعلّ التذكير بهذه المشاهد التي نقلها القرآن، تحفز الإنسان وتدفعه إلى محاسبة نفسه قبل أن يُحاسب، ووزن أعماله قبل أن توزن عليه، فينظر في عاقبة أمره.

هذا وكثيرا ما يعمد أبو العتاهية إلى جعل التركيب في النص الشعري قريبا من التركيب القرآني، ويؤازره في وظيفته الدلالية بل ويطابق الدلالة القرآنية، وهذا ما يجعل التداخل النصي أكثر وضوحا وجلاءً يقول:

أَلَا إِنَّ إِلَى اللهِ تَصــيِرُ الأُمُورُ مَـــا أَنْتِ يَا دُنْيَايَ إلاَّ غُرُورْ

إنُ امرأً يَصـْـــــفُو لَهُ عَيْشُهُ لَغَـــــــافلٌ عمَّا تَجِنُّ القُبُورْ[25]

يستدعي الملفوظ الشعري إلى الذهن قوله تعالى: "**صِراطِ اللهِ الَّذي لَهُ ما في السَّماواتِ ومَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصيرُ الأُمُورُ**"[26]، فالشاعر يوظف المقطع الأخير من الآية دون أن يحدث عليه أي تغيير، فقد جاء التركيب الشعري مطابقا للتركيب القرآني، ويؤدي معه وظيفة دلالية واحدة، وقد استطاع بهذا التناص أن ينبّه الناس إلى جملة من الحقائق الجوهرية؛ ومنها أن أمور الخلائق كلها بيده سبحانه وتعالى يجريها كيفما يشاء، وأن الدنيا غرارة غدارة خداعة، لا تستقر على صفة، ولا تدوم على حال، وأنّ مصير الإنسان فيها واضح جليٌّ، فالموت يتربص به من كلّ جانب والقبور تملأ آفاق أرضه الواسعة، فالشاعر بقدر ما يرهّب من الدنيا، يرغّب في الآخرة، ويرى بأنها دار المستقر التي يدوم نعيمها، والعاقل من اتخذ دنياه معبرا لآخرته.

وعلى المنوال ذاته يمضي الشاعر في استضافته للنصوص القرآنية، التي يتخذها معينا يروي بها قريحته الشعرية، وهذا ليس غريبا على شاعر كأبي العتاهية الذي لا يخفى عليه أن القرآن الكريم اجتمع فيه مالا يجتمع في غيره، فيه الدعوة والحجة، وهو الدليل

المنارة للاستشارات

والمدلول عليه، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الحكم والدليل، وهو الدعوى والبيّنة[27]، وما دام الأمر كذلك فهو ينهل منه قدر استطاعته، يقول:

للهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ جَمِيعًا   أَخْشَى التَّفَرُّقَ أَنْ يَكُونَ سَرِيعًا

أَفَتَأْمَنُ الدُّنْيَا كَأَنَّكَ لا تَرى   فِي كُلِّ وَجْهٍ لِلْخُطُوبِ صَرِيعًا[28]

ينفتح الملفوظ الشعري على الذاكرة القرآنية المفعمة بالدلائل التي تبرز فناء الحياة الدنيا وسرعة زوالها، من ذلك قوله تعالى: "**ومنْ يُسْلمْ وَجْهَهُ إِلىَ اللهِ وَهوَ مُحْسنٌ فقدْ اسْتَمْسَكَ بالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وإلىَ اللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ**"[29]، والشاعر يتّخذ من النص القرآني مطيّة ليذكّر الإنسان بالمصير الذي هو آيل إليه؛ فكلّ الأمور في هذا الوجود صائرة إلى الله، ثمّ يرهّب من الموت الذي قد يباغته في أي لحظة، وما دام الأمر كذلك فلماذا الغفلة أو النسيان؟ أم أن الإنسان يشكُّ في وعد الله، ويكذّب بالحق الذي جاءه به رسل الله وأنبياؤه، كلاّ إنّ وعد الله حقٌّ، وكلّ من في هذا الوجود سيفنى، مهما طال به العمر، أو رافقته السلامة، والله سبحانه قد وعد رسله بنصر الحقّ وهزم الباطل، وبتمكين أوليائه ودحض أعدائه، وفي هذا يقول الشاعر:

وَلَا تَحْسِبَنَّ اللهَ يُخْلِفُ وَعْدَهُ   بِمَا كَانَ أَوْصَى الْمُرْسَلِينَ أَوْ أَرْسَلَا

هُوَ المَوْتُ يَا ابْنَ المَوْتِ وَالبَعْثُ بَعْدَهُ   فَمِنْ بَيْنِ مَبْعُوثٍ مخَفًّا وَمُثْقَلاَ[30]

إنّه لحنٌ من ألحان الزهد يعزفه الشاعر في أضواء مصابيح القرآن النورانية، يستمد منه التركيب والدلالة، التي تستدعي إلى الذهن ما ورد في سورة ابراهيم من تأكيد الله عز وجل لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، على نصرته كما نصر الرسل والأنبياء قبله، قال تعالى: "**فَلاَ تَحْسبنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ ذوُ انْتِقاَمٍ**"[31]، ويستثمر الشاعر في هذه الآية ليمرّر رسالته الوعظية، فالموت حق على الإنسان، لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل الإنسان محاسب على أفعاله، وعلى صنيعه في دنياه، ويوم القيامة الناس صنفان؛ مخّف ومثقل، فعلى العاقل أن يحسن الاختيار.

كثيرا ما يستغل الشاعر بنية النص القرآني ويصوغها في شعره ليعبّر عن أفكاره ورؤاه، يقول حاثا على الإنفاق:

أَنْفِقْ فَإِنَّ اللهَ يُخْلِفُهُ   لا تَمْضِ مَذْمُومًا وَتَتْرُكُهُ

مَاذَا تُؤَمِّلُ لا أَبَالَكَ فِي   مَالٍ تَمُوتُ وَأَنْتَ تُمْسِكُهُ[32]

المنارة للاستشارات

يحيلنا الملفوظ الشعري في البيت الأول إلى قوله تعالى: "**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ منْ عِبادِهِ ويَقْدِرُ لَهُ وماَ أَنْفَقْتُمْ منْ شَيءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**"[33].

يحث النص القرآني على الإنفاق في سبيل الله، لأن كل ما ينفقه الإنسان يخْلِفُه الله عليه في الدنيا أو في الآخرة، وقد جاء نص أبي العتاهية متوافقا مع النص القرآني متماهيا معه، حاثا الناس على ضرورة الإنفاق والابتعاد عن البخل، متعجبا من ذلك البخيل الذي يمنع نفسه من التنعم بما أفاء الله عليه ظانا أنه سيخلُد به في الأرض، متناسيا بأنه سيرحل ويتركه للأهل والخلان، وسيعذّب به يوم القيامة، وهذا النص الشعري وأمثاله مما اشتمل على الحث على الإنفاق والبعد عن البخل، دليل على براءة شاعرنا من التهم التي لحقت به عن قصد، أو عن غير قصد، فقد رُمي بالبخل والحرص وهما صفتان تتناقضان مع نزعة الزهد التي تبناها الشاعر، ودعا إليها، فقد روي عن الجاحظ أنّه قال: "دعا أبو العتاهية عياش بن القاسم إلى بعض المتنزعات، فاتخذ له ضروبا من الأطعمة، وكان في أبي العتاهية شحّ شديد، فدخلت إليهم، فدخل أبو العتاهية يأكل من صفحة بين يديه، فيها ثريد بخلٍّ وبزر، فشممته، فقلت: أتدري ما تأكل؟ قال: نعم غلط الغلام بين دبّة الزيت والبزر، فصبّ بزرا، فكرهت أن يرفع بين يديّ فيبطل ولا يأكله أحد، وهما عندي قريب من قريب، فرأيت أن آكله ولا يضيع بعدي"[34]، وروى صاحب الأغاني عن ثمامة ابن الأشرس قال أنشدي أبو العتاهية:

إِذَا المرْءُ لَمْ يَعْتِقْ مِنَ المـاَلِ نَفْسَهُ   تَمَلَّكَهُ المــــالُ الذي هُوَ مَــالِكُهُ

أَلاَ إِنَّما مَـالِــي الذِي أَنــا مُنْفِـــقٌ   وَلَيْسَ لِي المَـــالُ الذي أَنَا تَارِكُهُ

إِذَا كُنْتَ ذَا مَــــــالٍ فَبَادِر بِهِ الذي   بِحَــــقٍّ وَإِلَّا اسْتَهْلَكَــتْهُ مَهَــالِكُهُ

فقلت له: من أين قضيت بهذا؟ فقال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إنّما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**"، فقلت له: أتؤمنّن بأنّ هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحق؟ قال: نعم، قلت: فَلِمَ تحبس عندك سبعا وعشرين بدرة في دارك، لا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكّي ولا تقدّمها ذخرا ليوم فقرك ؟ فقال: والله ما قلت لهو الحق، ولكنّي أخاف الفقر والحاجة إلى الناس[35].

وهناك روايات وحكايات غريبة وردت في كتاب الأغاني، وكتاب بغداد لطيفور، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الأدب لنيكلسون وغيرها،تتهم أبا العتاهية بالبخل

المنارة للاستشارات

والحرص الشديد على المال،وقد استوقفت بعض الدارسين وجعلتهم يحشدون الأدلة التي تبرئ الشاعرمن هذه التّهم، حيثرأى بعضهم أنّ حياة العوز والفاقة التي عاشها الشاعر هي التي جعلته يكون شديد الحريص على المال خوفا من الفقر، "وهذه حالة طبيعية لمن كان في وضعه، ومثل عصره، لا يحْتَرَمُ فيه أشباه الناس سوى الغنيِّ ولا يمجّدون إلا ذوي الجاه والسلطان، ولو كانوا من المجرمين أو اللصوص، فكيف بشاعرنا وهو الذي يحس إحساسا عميقا بمواهبه وأنه جدير بالشهرة والمجد"[36]، وبعد هذا هل يكون البخل سببا في رمي الشاعر بالتّصنع في زهده؟ ثم يكون بعد ذلك سببا في الانتقاص من إسلامه، بل ورميه بالزندقة والخروج عن الملّة؛ فلا ريب أنّ كلّ هذه التّهم صدرت عن حسّاد ومناوئي الشاعر ومنافسيه على بلاط الخليفة، وقد دلّ على هذا اعترافاتهم بشاعريته، وما يحمله بين ثناياها من حسد وكره وغيرة، فهذا ابن مناذر يُسأل عن أبي العتاهية وعن شعره فيقول:" هذا الخبيث الذي يتناول شعره من كمّه هو أشعر أهل الإسلام من المحدثين"[37]، وهذا بشار يُسأل عن أشعر أهل العصر، فيقول: "مخنث أهل بغداد يعني أبا العتاهية"[38]، فلا ريب أن هذه الصفات الجارحة مبعثها الحسد والغيرة والتّجني والعداوات الشخصية، بين الشاعر وخصومه ممن انتقدهم أو كشف عيوبهم.

كثيرا ما يعلن النص القرآني حضوره في شعر أبي العتاهية إعلانا واضحا فلا يجد المتلقي عناء في اكتشافه منذ الوهلة الأولى، من ذلك ما ورد في قوله:

الحَمْـدُ للهِ الوَاحِـــدِ الصَّمَـدِ   هُـوَ الذي لمْ يـــولَـدْ ولَمْ يَلِـــد

عَلَيْهِ أَرْزَاقُنَـــا فَلَـيْسَ مَـعَ اللَّــــهِ بِنَـا حَـاجَةٌ إِلَـــى أَحَـــــدٍ[39]

اتّكأ الشاعر على بنية النص القرآني وصاغها في شعره، ليعبّر عن حمده لله سبحانه وتعالى، وتوحيده له، وقد وظف آيات سورة الإخلاص في قوله تعالى: "**قلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ، اللهُ الصَّمَدْ، لمْ يَلِدْ ولمْ يُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أَحَدُ**"[40]، حيث يقرُّ السياق القرآني وحدانية الله وربوبيته، وينفي تعدد الآلهة، وينزهه سبحانه وتعالى أن يكون له ندٌّ أو كفءٌ، أو أن يكون للخلق رازق غيره، وهكذا تعانق النص الشعري مع النص القرآني، وتطابقا في الحث على طاعة الله وإخلاص العبادة له، والتوكل في كل الأمور عليه، وهذا لا ريب يعكس عمق الأثر الذي تركه القرآن الكريم في شعر أبي العتاهية، حيث اتخذه معينا

المنارة للاستشارات

ينهل منه ما يمنح خطابه الشعري الخصوبة والقوة والدلالة المفعمة بالمعاني الروحية السامية.

هذا وقد أدرك أبو العتاهية أنّ الشكر هو رأس الإيمان فشكر الله على النعم، يوجب على الإنسان أن يعترف بقلبه أن واهب هذه النعم هو الله وحده دون سواه، لذا راح يحثّ الناس على شكر خالقهم على النعم التي يتقلبون فيها آناء الليل وأطراف النهار، والعاقل منهم من عرف حقّ ربّه فأداه، يقول:

سُبْحَانَ مَنْ أَعْطَـاكَ مِنْ سَعَـةٍ   سُبْحَــانَ مَنْ أَعْطَـاكَ مَا أَعْطَى

فَلَــئِنْ عَقِـلَت لَتَشْـــكُرن وَإِنْ   تَشْكُــرْ فَقَـدْ أَغْنَـى وَقَـدْ أَقْنَــى[41]

واضح من النص الشعري اقتباس الآية القرآنية من قوله تعالى:"**وَأَنَّهُ هوَ أَغْنَى وأَقَنَى**"[42]، والتي تقر بأن الله "أغنى من عباده من شاء في الدنيا بأنواع الغنى وهي شتى، غنى المال وغنى الصحة، وغنى الذرية، وغنى النفس، وغنى الصلة بالله والزاد الذي ليس مثله زاد، وأغنى من عباده من شاء في الآخرة من غنى الآخرة، وأقنى من شاء من عباده، من كل ما يُقتنى في الدنيا وكذلك في الآخرة"[43]، والبارز في هذا التناص أن النص الشعري جاء متواشجا متناغما مع النسيج القرآني، فقد وظف الشاعر هذه الآية القرآنية، حتى يبرز حقيقة أن الخلق فقراء، لا يغتنون ولا يقتنون إلا من خزائن الله العامرة التي لا تعرف الخواء أو النضوب.

وتتناول معظم التناصات الاقتباسية مع القرآن الكريم في شعر أبي العتاهية قضايا حساسة، ترتبط بعلاقة العبد بربه، وما يجب أن يلتزمه حتى يكتب عند الله في زمرة عباده الصالحين.

فالمهتدي هو من هداه الله إلى الطريق السّوي وبهدي الله استقام، وبإرادته سبحانه ابتعد عن الضلالة والغيّ، يقول الشاعر:

إِذَا أَنْـتَ لَمْ تَهْدِنَـا ضَلَلْنَــا   يَــا ربُّ إِنَّ الهُـدَى هُدَاكَـــا[44]

يبدو واضحا إشراق النص القرآني، فالشاعر اتكأ إلى قوله تعالى: "**ولاَ تؤمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دينَكُمْ، قلْ إنَّ الـهُدَى هُدَى اللهِ أنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتَيْتُمْ أوْ يُحاجُوكمْ عنْدَ رَبِّكُمْ، قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ منْ يَشاءُ واللهُ وَاسعٌعَليمٌ**"[45]، وقام بتغيير طفيف في الصياغة دون أن يمس جوهر المعنى، فهناك تعانق وتطابق بين النص القرآني والنص الشعري،

المنارة للاستشارات

في إقرار حقيقة أن الهدى هو هدى الله وحده، وأن أعظم فضل هو ما منّ به خالقنا سبحانه وتعالى على أمة نبيّه، بالرسالة وبالرسول صلى الله عليه وسلم.

خاتمة:

إن أي عملية إبداعية لا يمكنها أن تنطلق من فراغ، والمبدع لا ينطلق من العدم أو اللاشيء، ونصوص الشعراء تعد شبكات لامتناهية من التحولات الدلالية التي تجمعت فيها، ولما كان القرآن الكريمأهم مصدر للثقافة والعلم، ونبعا فياضا للفصاحة والبيان، فقد رأينا الشعراء على مختلف مشاربهم وتعدد عصورهم، ييمنون شطره فينهلون من ينابيعه السخية ما يثري تجاربهم، ويمنح نصوصهم الخصوبة والغنى، **ويعد** أبو العتاهية واحدا من هؤلاء الذين اغترفوا من ينابيعه السخية،والدراسة خلصت إلى جملة من النتائج كان أبرزها:

-يعد ابو العتاهية واحدا من الشعراء الكثر الذين استقوا من المورد القرآني فقد استلهمه في تجاربه الشعرية فكان رافدا مهما أثرى به الشاعر نصوصه واستغل طاقاته المتعددة.

- كانت الآيات القرآنية بما تكتنزه، مصدرا ثريا يستفيد الشاعر من مفرداتها وتراكيبها، ويعيد صياغتها ونظمها في سياقات دلالية جديدة، تمكنه من التعبير عن تجاربه الشعرية.

- والمتصفح للمتون التي تركها الشاعر يكتشف دون عناء وجود أشكال مختلفة من التناص مع القرآن الكريم، والتي تشير بدورها إلى غنى تجربته الشعرية وتنوعها، وكان أكثر هذه الأشكال حضوراً؛ التناص الاقتباسي إذ كثير ما يلجأ الشاعر إلى استدعاء المفردات والتراكيب القرآنية ويصهرها في أتون نصوصه الإبداعية، وهذا ما يمنحها الثراء والغنى الذي ما كانت لتصل إليه بعيدا عنه.

-ساهمت التناصات الاقتباسية في تعميق الدلالة التي تحملها النصوص المقتبسة ومن ثم اسقاطها على التجارب التي ينقلها الشاعر، إلا أن بعضها جاء جافا خال من روح الإبداع.

الهوامش:

[1]- ينظر باختين ميخائيل الخطاب الروائي تر: محمد برادة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة باريس ط1 1987 ص 53-54.

المنارة للاستشارات

[2]– الغذامي عبد الله الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج معاصر الهيئة المصرية العامة للكتاب ط4 1998 ص 326.
[3]– حنبلي فاتح التناص في شعر ابن هانئ الأندلسي رسالة دكتوراه جامعة باتنة (2004-2005) ص 04.
[4]– ينظر بنيس محمد ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب دار العودة بيروت لبنان ط1 1979 ص 253.
[5]– المرجع نفسه ص 253.
[6]– ينظر أحمد ناهم. التناص في شعر الرواد. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. ط1. 2004 ص 43.
[7]– ينظر. واصل عصام حفظ الله. التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر، دار غيداء للنشر والتوزيع عمان الأردن ط1، 2011. ص 78.
[8]– ينظر. سعد الله أبو القاسم محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث. دار المعارف مصر ط2. 1968. ص 216.
[9]– محمد عبد المطلب. قراءة أسلوبية في الشعر الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. ط1. 1995. ص 163.
[10]– أبو العتاهية. أشعاره وأخباره. تحقيق شكري فيصل. مطبعة جامعة دمشق 1965. ص 589.
[11] – سورة القيامة. الآية 26/ 29.
[12]– يُنظر، سيد قطب في ظلال القرآن. دار الشروق. القاهرة ط 11. 1985 ، ص 3772 .
[13] – سورة القيامة. الآية 27.
[14]– سيد قطب. في ظلال القرآن. ص 3772.
[15]– أبو العتاهية. أشعاره وأخباره. ص 612. 613.
[16] – سورة الزلزلة . الآية 1.
[17]– ينظر. الأصفهاني. الأغاني. تح إحسان عباس، ابراهيم السعافين، بكر عباس دار صادر بيروت ط3، 2008ج4. ص 29.
[18]– ابن الأثير. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة القاهرة (دط)، (د ت). ج1. ص 194.
[19]– أبو العتاهية. أشعاره وأخباره. ص 146.

المنارة للاستشارات

[20] – سورة نوح. الآية 13. 14.

[21]– ينظر. الزمخشري. تفسير الكشاف. تحقيق خليل مأمون شيحا. دار المعرفة. بيروت لبنان. ط3. 2009. ص 1143.

[22]– ينظر. العقدة محمود فرج عبد الحميد. أبو العتاهية شاعر الزهد والحكمة. دار العلوم للطباعة والنشر. الرياض ط1.ج1. ص 445.

[23]– أبو العتاهية. المصدر السابق. ص 123.

[24] – سورة ق. الآية 21.

[25]– أبو العتاهية. المصدر السابق. ص 172.

[26]– سورة الشورى. الآية 35.

[27]– ينظر. ابن القيم، مدارج السالكين. تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي. دار الكتاب العربي. بيروت لبنان. ج3. ص 368.

[28]– أبو العتاهية. المصدر السابق. ص 228.

[29]– سورة لقمان. الآية 22.

[30]– أبو العتاهية. المصدر السابق. ص 304.

[31]– سورة إبراهيم. الآية 47.

[32]– أبو العتاهية . المصدر السابق. ص 277.

[33] – سورة سبأ، الآية 39.

[34] – إبراهيم شمس الدين . قصص العرب. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط1. 2002. ج1. ص 349.

[35]– ينظر الأصفهاني. الأغاني. ج4. ص 15.

[36]– خليل شرف الدين. أبو العتاهية. منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت (دط)، 1983. ص 48.

[37]– الأصفهاني. المرجع السابق. ج4. ص 47.

[38]– الأصفهاني. نفسه. ج4. ص 57.

[39]– أبو العتاهية. أخباره وأشعاره. ص 119.

[40]– سورة الإخلاص. الآية 1/ 4.

[41]– أبو العتاهية. أخباره وأشعاره. ص11.

[42] – سورة النجم. الآية 48.

المنارة للاستشارات

43- سيد قطب. في ظلال القرآن. ص 3417.

44- أبو العتاهية . المصدر السابق. ص 262.

45- سورة آل عمران. الآية 73.

المصادر والمراجع:

*-**القرآن الكريم** . برواية حفص عن عاصم.

1-أبو العتاهية أشعاره وأخباره. تحقيق شكري فيصل. مطبعة جامعة دمشق 1965.

2- ابن القيم الجوزية. مدارج السالكين. تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي. دار الكتاب العربي. بيروت لبنان.

3-إبراهيم شمس الدين . قصص العرب. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط1. 2002.

4- ابن الأثير ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة القاهرة (دط)، (د ت).

5- باختين ميخائيل، الخطاب الروائي تر: محمد برادة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة باريس ط1 1987.

6- بنيس محمد ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب دار العودة بيروت لبنان ط1 1979.

7-أحمد ناهم . التناص في شعر الرواد. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. ط1. 2004.

8 - حنبلي فاتح التناص في شعر ابن هانئ الأندلسي رسالة دكتوراه جامعة باتنة (2004- 2005)

9- خليل شرف الدين. أبو العتاهية. منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت (د ط)، 1983.

10-سعد الله أبو القاسم محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث. دار المعارف مصر ط2. 1968.

11-سيد قطب في ظلال القرآن. دار الشروق القاهرة. ط39. 1432هـ/2011م.

12-الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين. الأغاني، تح إحسان عباس، ابراهيم السعافين، بكر عباس دار صادر بيروت ط3، 2008.

13-العقدة محمود فرج عبد الحميد. أبو العتاهية شاعر الزهد والحكمة. دار العلوم للطباعة والنشر. الرياض ط1.

14- الغذامي عبد الله الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج معاصر الهيئة المصرية العامة للكتاب ط4 1998 .

المنارة للاستشارات

15-الزمخشري. تفسير الكشاف. تحقيق خليل مأمون شيحا. دار المعرفة. بيروت لبنان. ط3. 2009.

16-واصل عصام حفظ الله، التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر، دار غيداء للنشر والتوزيع عمان الأردن ط1، 2011.

المنارة للاستشارات